

التجارة الربحة فى القرآن الكريم

فى يوم الثلاثاء ٢٨ رمضان سنة ١٣٩٩ هـ
الموافق ٢١ أغسطس سنة ١٩٧٩ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها المستمعون الكرام ،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

وبعد فانى أحمد اليكم الله الذى لا اله الا هو الرؤف الرحيم وأصلى واسلم على سيدنا ومولانا محمد الذى أرسله بالهدى ودين الحق وأخرجنا على يديه من الظلمات الى النور مصداقا لقوله تعالى فى سورة البقرة (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) ولقوله تعالى فى سورة آل عمران (لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأطهار وعلى أصحابه الأبرار ورضى الله عنم والاهم باحسان الى يوم الدين وعن شيوخنا الأجلاء أجمعين .

أما بعد .

فارى لزاما على أن اتقدم أولا بالشكر الخالص للسيد المفضال الدكتور عبد العزيز حجازى نقيب التجاريين الذى تفضل ودعانى لأحضركم وأنتم أحببى وزملائى فأتاح لى فرصة الالتقاء بكم فى هذه الليلة الزاهرة من شهر رمضان المبارك أعاده الله على الاسلام والمسلمين فى المشارق والمغرب بخير ما تعود الشهور والأعوام ، وأتبع الشكر بالتحدث اليكم فى موضوع المحاضرة وهو " التجارة الربحة فى القرآن الكريم " وقد أخترت هذا الموضوع لأخاطب التجاريين باللغة التى يجيدونها .

وقد شدنى الى اختيار هذا الموضوع قول الله تعالى فى سورة فاطر (ان الذين يتلون كتاب وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله انه غفور شكور) وهو قول كريم يمدح به سبحانه المقبلين على قراءة القرآن المجيد وتدبر آياته البينات

والعمل بأوامره ونواهيه ، فيقيمون الصلاة التي شرعها الله ويؤتون الزكاة التي فرضها سبحانه ، فلا يبخلون على الله بالجهد البدني أو بالانفاق المالى ، بل يؤدون ما فرض الله عليهم خوفا من عقابه وطمعا فى ثوابه وكسبا لرضاه ، لعلمهم أن حياتنا فى الدنيا موقوته بأجاننا التي تنتهى حتما بالموت الذى كتبه الله علينا ، وهم فى جهادهم بالنفس والمال يشترون نعيم الجنة بالموت الباقي بمتاع الدنيا الفانى ، وتلك هى التجارة الربحة التي لن تبور ، فقد وعدهم سبحانه أن يوفيهم أجور جهادهم لا بل ويزيدهم من فضله فيغفر زلاتهم ويضاعف حسناتهم وهل يكون من القرآن الكريم الا الكرم . بيع الفانى بالباقي .

ولا شك أن من يبيع متاع الدنيا الفانى بنعيم الآخرة الباقي يكون تاجرا حاذقا ، كما يكون راشدا بعيد النظر ، خاصة وقد حذرنا القرآن الكريم من الافتتان بالدنيا وزخرفها الموقوت كما حذرنا من التلهى بها عن الآخرة ، وحضنا على السعى للآخرة سعيها المناسب لقدرها ودوامها ، وبين لنا أنها خير من الدنيا وأبقى ، كما بين لنا أننا فى امتحان رهيب بزينة الحياة الدنيا الموقوت فقال تعالى فى سورة الكهف (انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وأنا لجاعلون ما عليها صعيذا جرزا) .

نجاح السلف الصالح :

وهذا الامتحان الرهيب نجح فى اجتيازه بتفوق أسلافنا الصالحون من ساداتنا الصحابة الكرام والتابعين الأعلام وتابعى التابعين البررة ، لأنهم تأسوا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أقواله وأفعاله وأحواله ، وصاروا بتأسيهم الجاد خير القرون فى الأمة المحمدية ، وكيف لا يتأسون به صلى الله عليه وسلم والله تعالى يقول فى سورة الأحزاب (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) كما قال الله تعالى فى

سورة النور (وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين) وقد أقبلت عليهم الدنيا ولكنهم حصنوا أنفسهم من فتنها بالزهد البالغ ، وليس المقصود بالزهد ترك الكسب والعكوف على العبادة وحدها كما يظن البعض خطأ ، بل المقصود بالزهد ألا يفرح المؤمن بسعة رزقه فى الخيلاء ، فيتعالى على الناس بالموجود عنده من الأموال وألا يحزن فى جزع بالقضاء على المفقود منها ، لأن الله تعالى يحب من عبده المؤمن أن يكون شاكرا فى الرخاء وشكر النعمة يوجب عليه أن يستعملها فى مرضاة الله ربه ، كما يحب منه أن يكون راضيا بالقضاء ، والرضا بالقضاء يوجب عليه أن يكون صابرا فى البلاء صبر الراضين بالقضاء ولو كان مرا لأنه لا فاعل فى الرخاء والبلاء الا الله ، وقد بسط الله الملك لسيدنا سليمان عليه السلام فقال فيما حكاه الله عنه فى سورة النمل عندما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده (هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربي غنى كريم) وكذلك قال سيدنا يوسف عليه السلام عندما ملك وحكم ما حكاه الله فى سورة يوسف (رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين) وقد قص الله علينا قصصهم لنعبر بها كما قال سبحانه (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) .

السادة الصوفية يقلدون السادة الصحابة :

وهذا ما يفسر لنا ما يقوله سيدى الامام الصوفى الكبير جلال الدين الرومى رضى الله عنه : ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك . والسادة الصوفية نجحوا فى اجتياز امتحان الدنيا الرهيب ، بتقليدهم أهل الهمة من ساداتنا الصحابة الأمجاد الذين كانوا أسبق الأجيال فى تقليد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويدلنا على ذلك ما وقع بين ابن بشار الفقيه العباسى وبين سيدى الامام أبى بكر الشبلى .

خليفة سيدى الامام أبى القاسم الجنيد . فقد ذهب ابن بشار الى الامام الشبلى وسأله : كم فى خمس من الأبل ؟ فقال سيدى الشبلى تريد زكاتها ؟ قال : نعم ، قال : فى واجب الشرع شاه ، وفيما يلزم أمثالنا كلها . فتعجب ابن بشار من هذه العبارة الأخيرة فقال للامام الشبلى : ألك فى ذلك امام ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ فأجاب سيدى الشبلى : أبو بكر الصديق رضى الله عنه . فقد قدم كل ماله فى سبيل الله ، ولما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذى أبقيت لعيالك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

قالوا فخرج ابن بشار ممتقع اللون وذهب الى زملائه من الفقهاء ، وقال لهم أضعنا عمرنا فى المجادلات وذهب الصوفية بالخير كله ، وحكى لهم ما جرى بينه وبين سيدى الشبلى رضى الله عنه كما سمعتموه .

الصحابة يتفاوتون :

ومع امتياز الصحابة الكرام عن الأجيال اللاحقة لهم . فانهم كانوا يتفاوتون فيما بينهم . وأثبت القرآن الكريم لهم هذا التفاوت فى مثل قوله تعالى فى سورة الحديد (وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض ، لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعلمون خبير) وجا فى تفسير أن هذه الآية نزلت فى شأن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فانه أول من آمن وأنفق فى سبيل الله وخاصم الكفار حتى ضربوه ضربا أشرف به على الموت . وفى هذه المناسبة أذكر لكم ما حكاه سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد قال فى فضل سيدنا أبى بكر رضى الله عنه ، قلت اليوم أسبق أبا بكر ، فأخذت نصف مالى وذهبت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقلت يا رسول الله هذا نصف مالى أقدمه لله وأبقيت النصف لى ولعالي ، وكنت أظن أن أبا بكر

لا يقدم نصف ماله فاذا به قد سبقنى وقدّم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل ماله ، فقلت لأبى بكر : لا أسابقك فى شىء بعدها أبدا ، لقد أتعبت من بعدك .

شرف التجارة :

وإذا كان القرآن الكريم قد أثنى على المؤمنين المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله تعالى وبين أنهم يرجون تجارة لن تبور ، وهى تجارة أخروية لا تتعرض أبد للبوار ، فانه نوه كذلك بشرف الساعين على كسب الحلال من طريق التجارة الدنيوية وقرنهم بالمقاتلين فى سبيل الله ، وذلك فى قوله سبحانه وتعالى فى سورة المزمل (ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم آئن تحصوه فتاب عليكم فاقروا ما تيسر من القرآن . علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقروا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم) فقوله تعالى (وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله) يشير به الى التجارالذين يسافرون فى شأن تجارتهم لكسب عيشهم من حلال ، وقد جعلهم الله تعالى من أصحاب الأعذار الشرعية ، فخفف عنهم من قيام الليل ، وكان قيام الليل فريضة فى أول الأمر ثم خفف بالآية السابقة ثم نسخ قيام الليل بفريضة الصلاة فى حق المؤمنين ، ولكنه بقى واجبا فى حق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى فى سورة الاسراء مخاطبا له صلى الله عليه وسلم (أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا . ومن الليل فتهدد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) والمقام المحمود هو مقام الشفاعة الذى يؤتيه الله تعالى له يوم القيامة حين يستغيث

الناس به فى الموقف صلوات الله وسلامه عليه . ومعنى نافلة لك أى زيادة على الفريضة .

كسب الحلال :

وقد حرص اسلافنا الصالحون على كسب الحلال فى تجارتهم الدنيوية ووضعوا على الدوام نصب أعينهم قوله تعالى فى سورة البقرة (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وامره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين ، فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) .

ولنتدبر فى هذه الآيات الكريمة لنرى كيف أحل الله البيع وحرم الربا ، وكيف حذر المرابين من سوء العاقبة يوم القيامة بقوله تعالى (الذين يأكلون الربا لا يقيمون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) أى لا يقومون من قبورهم الا كقيام الذى يصرعه الشيطان من الجنون فىكون آكل الربا عندئذ كالمصروع الذى لا يملك الحركة الصحيحة ، وهذه الصورة القبيحة تكون علامة على آكل الربا يوم القيامة .

واعجبوا لهؤلاء الذين أحلوا الربا الذى حرمه الله فى شرعه ، وازدادوا عجا من قولهم (إنما البيع مثل الربا) فقد جعلوا الربا أصلا حلالا يقيمون عليه البيع الحلال ولم يجعلوا البيع الحلال أصلا يقيمون عليه الربا ، وهى مغالطة

سافرة أرادوا بها تحليل ما حرم الله .

ومن المحزن حقا أن نرى الربا فاشيا فى جميع البلاد الاسلامية كأثر سييء من آثار الاستعمار الذى ذهب وترك آثاره السيئة بين المسلمين من الربا وشرب الخمر ولعب القمار والملاهى فى الفاحشة والبغاء وتطبيق الأحكام الوضيعة البشرية ونبذ الأحكام الربانية الشرعية ، ولكن من فضل الله علينا أننا فى أيامنا الأخيرة استيقظنا من الغفلة لاصلاح ما فسد من أمور المسلمين ، وقامت فى مصر بالفعل بعض البنوك التى التزمت فى معاملاتها بأحكام الاسلام ، ونأمل أن يعم نظامها سائر البنوك فى مصر وسائر البلاد الاسلامية . ويضاعف سرورنا بهذه الخطوة أن بلادنا العزيزة الرائدة لسائر البلاد الاسلامية شرعت فى تقنين أحكام الشريعة وقد قرأت أخيرا تصريحاً للسيد الدكتور رئيس مجلس الشعب أن المجلس سينظر فى دورته الحالية القوانين فى شكل متكامل .

هذا وأود أن ألفت انتباهكم الى أن قوله تعالى (يحق الله الربا) أشد من يسحق ، لأن السحق معناه الذهاب بالبركة كلية ، أما المسحوق فقد يبقى أثره بعد السحق ويقول سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن الله لا يقبل من مال الربا صدقة ولا حجا ولا صلة .

اما قوله تعالى (ويرى الصدقات) فمعناه كما جاء فى تفسير الامام ابى السعود رضى الله عنه : " يزيد ويبارك فى المال الحلال الذى اخرجت منه " وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى يقبل الصدقات ويرببها كما يربى ادهم مهره . كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال " مانقصت زكاة من مال قط " وقال " حصنو امولكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقه واستقبلوا امواج البلاء بالدعاء والتضرع " .

وما اسعد المنفقين فى سبيل الله بقوله الكريم فى سورة البقره (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبه انبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائه حبه

والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ويعلمنا سبحانه ان المنفقين فى مرضاه الله انما يحسنون لانفسهم فيقول فى سورة البقره كذلك جل جلاله (وما تنفقوا من خير فلانفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وانتم لا تظلمون) ومن ذلك نرى ان ربح النفقه فى سبيل الله تعالى ربح مضاعف وحلال ومحقق لان الله تعالى لا يخلف وعده الذى سمعتموه .

النهى عن اكل الاموال بالباطل :

وكذلك حرص اسلافنا الصالحون على تجنب اكل الاموال بالباطل امثالاً لقوله تعالى فى سورة النساء (يا ايها الذين امنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا ان تكون تجارة عن ترضى منكم ولا تقتلوا انفسكم إن الله كان بكم رحيماً ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصيله ناراً وكان ذلك على الله يسيراً) وجاء فى تفسير الجلالين ان قوله تعالى (ولا تقتلوا) انفسكم اى بارتكاب ما يؤدى الى هلاكها فى الدنيا والآخرة وقوله تعالى (الا ان تكون تجارة عن ترضى منكم) اى تجارة عن طيب نفس فلكم ان تأكلوها لان التجارة ليست من جنس الأموال المأكولة بالباطل .

وصف الورع الذى تحلى به اسلافنا الصالحون فى الكسب والنفقه :

ويصف لنا سيدى الامام الصوفى الكبير جلال الدين الرومى ما تحلى به اسلافنا الصالحون من الورع فيقول رضى الله عنه فيما ترجمه عنه الى العربية صديقى العلامة الشيخ الصاوى شعلان مد الله فى عمره :

" كان الأولون حريصين على ترك الحرص ، وكانوا فى بعض ما أحل لهم ازهد

منا فيما حرم علينا ، وكانوا لصغائر الذنوب اشد استعظاما منا لكبائر المعاصي ، حتى كادوا يفوقون بفطرهم صومنا ، ويتحدون بنومهم يقظتنا ، وربما تركو سبعة أبواب من الحلال من أجل باب من الحرام يخشونه ، فعملوا صالحا ، وكسبوا حلالا ، وأكلوا طيبا ، وأنفقوا برا ، وقدموا أجرا .

وأضاف سيدي الامام الرومي يقول ناصحا للمؤمنين :

" فعش ايها المؤمن في ذكراهم كأنك معهم ، ولا تسلط الهوى في نفسك ، ولا تجعل الأحجار المتراكمة من الخطايا تحطم قلبك ، فان الفخار اذا انكسر لا يرقع ولا يعاد طينا " .

واسع الى كسب الرزق من بيدر اللطيف الخبير . والبيدر معناه الجرن ويقصد به اسباب الرزق التي شرعها الله . واجعل القناعه من كسبك ، والرضا أفضل رزقك وأعلم أن الدنيا لو كانت كلها طوع يدك ، ما كان منها سوى القوت فلا تأكل في سبعة امعاء .

" ان أموال قارون لم تزد له لحظه على العمر المقدور ، وان الاسكندر الأكبر قهر الجيوش الزاحفه ، ثم زحف عليه الأجل المحتوم ، وقهره في الوقت المعلوم ،

" اقرأ ما كتب الرحمن في صحائف الأكوان ، ولا تجعل الظواهر منتهى بصرك ومبلغ علمك حتى لا تحجب الحقيقه عن عينك ، وتنحرف بك الالهواء عن سبيلها ، أيها المؤمن ، ان آثام اليوم هي عقارب الغد ، وسكرة الدنيا هي لهيب العطش في الصحراء القيامة .

وتلك النصائح كما ترونها هي أمينه وغاليه ، وهو يشدنا بها الى الدار الآخرة وما يكون فيه من شده على العاصين الذين يتعدون حدود الله في دنياهم ولا يباليون بحلال او حرام ، ويوجهنا رضى الله عنه الى الاعتبار بمن ما توا في آجالهم من أصحاب الأموال والجاه .

وأقول : وما أصدق ما قال أماننا الجليل على بن أبى طالب كرم الله وجهه حين قال : ما أكثر العبر وأقل الاعتبار .

جهاد النفس وأثره :

وقد ابتلانا الله بالنفس البشرية الأمارة بالسوء ، وأمرنا بنهيها عن هواها ، ووعدنا أن تكون الجنة مأوانا إن قاومنا هواها فى دنياها خوفا من عقاب الله يوم القيامة فقال تعالى فى سورة النازعات (فاذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الانسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى ، فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هى المأوى) .

شح النفس البشرية :

والنفس البشرية تشح عادة ببذل المال وتبخل فى بذله ولو كان مفروضا فى شرع الله ، ويغيب عن المؤمنين البخلاء أنهم سيقفون بين يدى الله يوم القيامة ويسألهم عن تقصيرهم فى أداء الزكاة المفروضة مع أنه نبههم فى كتابه الكريم الى عاقبة البخل بمثل قوله الكريم فى سورة محمد (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ، إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ، ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .

وقوله تعالى (فمنكم من يبخل) يدل على أن منهم من يجود ولا يبخل . لأنه لم يرم الكل بالبخل بل نسبه الى بعضهم . وهؤلاء البخلاء يتابعون نفوسهم البشرية فى هواها ولا يقاومونها كما يحب الله تعالى ان تقاوم ، وقوله تعالى (ولا يسألكم أموالكم) ، أى لم يطلب منكم أن تنفقوا فى الزكاة كل الأموال بل فرض عليكم فى الانفاق نسبة يسيرة ، فزكاة المال مثلا ربع العشر ، وزكاة الحبوب

العشر ان كان الرى بالراحة ونصف العشر ان كان الرى بالآلات .

الايمان والجهاد تجارة رابحة :

وما أروع ما يقول تعالى فى سورة الصف ناصحا المؤمنين (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) ، وهى آيات بينات يأمرهم بها سبحانه أن يستمسكوا بالايمان بالله ورسوله ، وأن يجاهدوا فى مرضاته بالأموال والأنفس ويبشروهم بجزاء ين أحدهما عاجل فى الدنيا وهو النصر على الأعداء وفتح مكة وغيرها وثانيهما آجل وهو دخول الجنة والتمتع بنعيمها الدائم ، وذلك هو الفوز العظيم .

ويعقب سيدى الامام القشيري على الآيات المتقدمة فيقول فى لطائف اشارته رضى الله عنه .

" سمي الايمان والجهاد تجارة لما فى التجارة من الربح والخسران وكذلك فى الايمان والجهاد ربح الجنة وفى ذلك يجتهد العبد ، وخسرانها اذا كان الأمر بالضد .

" وقوله (تؤمنون بالله) أى فى ذلك جهادكم وايمانكم واجتهادكم وهو خير لكم .

" ثم بين الربح على تلك التجارة ما هو فقال (يغفر لكم ذنوبكم) قدم أهم الأشياء وهو المغفرة ، ثم اذا فرغت القلوب عن العقوبة قال (يدخلكم جنات . . .) وبعدهما ذكر الجنة ونعيمها قال (ومساكن طيبة) وبماذا تطيب تلك المساكن ، لا تطيب الا برؤية الحق سبحانه ، ولذلك قالوا :

" نحن فى أكمل السرور ولكن . . ليس الا بكم يتم السرور .

أقول : وفى مناسبة ذلك البيت الأخير أذكر لكم ما قالتها السيدة رابعة العدوية
رضى الله عنها ، وهى المحبة الهائمة فى الله عز وجل . فى تطلعها للرؤية
التي وعد بها الله عباده المتقين بقوله الكريم فى سورة القيامة (وجوه يومئذ
ناضرة ، الى ربها ناظرة) فقد قالت :

ليس قصى من الجنان نعيما . . غير أنى أحبها لأراكا

ويقول سلطان العاشقين سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه فى تلهفه لرؤية
الله فى الآخرة :

وإذا سألتك أن أراك حقيقة . . فاسمح ولا تجعل جوابى لن ترى

ويقول فى تلك الرؤية السعيدة سيدى وشيخى الشيخ على عقل فى الهامه الشعري
المرتجل طيب الله ثراه :

من يشاهد نور المهيمن يفنى . . عن نعيم الجنات والولدان

مارجوت الجنان الا لأنى . . فى حماها أجار بالرحمن

ويقول السادة الصوفية : ان فى الجنة أقواما لو حجبهم عن رؤيته تعالى لاستغاثوا
كما يستغيث أهل النار من النار ، أقول : ولا تعجبوا من قولهم هذا ، لأن الله
تعالى يعاقب الكافرين بالحجاب عن رؤيته فوق عقابهم بالنار . ويدلنا على ذلك
قوله تعالى فى سورة المطففين . (ويل يومئذ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم
الدين . وما يكذب به الا كل معتد أثيم . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير
الأولين . كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلا إنهم عن ربهم يومئذ
لمحجبون . ثم إنهم لصالوا الجحيم . ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون)
ونعوذ بالله من الكفر والكافرين والحجاب والمحجوبين .

هذا ورؤية الله تعالى فى الجنة لأهل الايمان بلا كيف ولا حد بل يتجلى

عليهم سبحانه بأنواره القدسية كما يشاء فتغشاهم أنواره ويسعدون بهذه الرؤية السعيدة سعادة لاحد لها ، وقد جاء فى حاشية الامام الجمل رضى الله عنه عند قوله تعالى فى سورة ق (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) أى زيادة على ما عملوا وطلبوا ، قال أنس وجابر فى النظر الى وجه الله الكريم ، قيل يتجلى لهم الرب تبارك وتعالى فى كل جمعة فى دار كرامته .

الكافرون والمنافقون فى تجارتهم الخاسرة :

وشتان بين تجارة المؤمنين الرابحة وتجارة الكافرين الخاسرة فقد قال تعالى فى شأن الكافرين فى سورة البقرة (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم) .

وقال تعالى فى شأن المنافقين فى السورة ذاتها (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون والله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض وقالوا انما نحن مصلحون . الا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزون الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) ومعنى (الله يستهزئ بهم) أى يعاقبهم ويجازيهم ، وعبر عنه بالاستهزاء مشاكلة فى اللفظ كقوله تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) ولعلنا نلاحظ فى ذلك القول الكريم حب الله لأهل الايمان وغيرته عليهم ، فان استهزاء الكافرين بهم أسخط الله عليهم .

ولا يخفى على اللبيب أن هذا النفاق اللعين كان قد اختفى بعد أن استقرت

كلمة الله فى الأرض وقويت شوكة الاسلام ، ولكنه ظهر فى زماننا من جديد بعوامل سياسية وافرة ويتستر مرضى القلوب من الدعاة الضالين من أبناء المسلمين بستار الاسلام ويدعون لمذاهب أهل الكفر بحجة العصرية والفكرية وينخدع بدعوتهم الشباب البرئ . ومن واجبنا أن نحذر شبابنا الطاهر من الاستماع لهؤلاء الضالين المضلين المغررين الذين يبيعون دينهم القيم بثمن دنيوى بخس ، وهم يخادعون الله تعالى باظهار خلاف ما أبطنوه من الكفر وهو الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ، ويفتنون شباب المسلمين فى دينهم ولا يحسبون حسابا لعقاب الله يوم القيامة ، يوم الحسرة والندامة ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا .

الشيوعيون أعمق كفرا من ابليس :

وقد قرأت يوما مطلع سورة الحجر الذى يقول فيه سبحانه وتعالى (أَلَمْ تَكُنْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) فشدنى هذا القول الكريم الى التفكير فيما يقول به الشيوعيون من أن الدين أفيون الشعوب ، وقارنت بين الشيوعيين وابليس فوجدتهم أخس فى كفرهم من ابليس . ان ابليس لم ينكر وجود الله تعالى بل قال لربه (خلقتنى من نار) ولم ينكر ابليس البعث بعد الموت بل قال لربه (انظرنى الى يوم يبعثون) وانما جاء كفره من الاصرار على معصية الله تعالى عنادا ومخالفة لأمره حين أمره سبحانه وتعالى ان يسجد مع الملائكة لسيدنا آدم فلم يسجد وحمله الحسد والكبر على تلك المعصية فباء بغضب الله ولعنته .

ولا يفوتنى فى هذه المناسبة أن أنبهكم الى أن سيدنا آدم وسيدتنا حواء عليهما السلام وقعا فى خطيئة الأكل من الشجرة ، ولكنهما اعترفا بالخطيئة

فى لله تعالى . وقال فى توبتهما (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ، فتاب الله عليهما ، وبينما رد والدى البشر الخطيئة الى أنفسهما رد ابليس اللعين خطيئته الى ربه فقال (فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراط المستقيم) .

ابليس يتنصل يوم القيامة من اتباعه :

ومن عجيب أمر أبليس اللعين أن يفتن الناس عن دينهم ويضلهم عن الصراط المستقيم فيجاريه الأشقياء ، ولكنه يتنصل منهم يوم القيامة ويقول لأهل النار يوم القيامة ما حاكاه الله فى سورة ابراهيم (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) ومعنى (وما أنا بمصرخكم) أى لست مغيثكم ، ومعنى (إنى كفرت بما أشركتمون) أى تبرأت من طاعتكم لى فى السر كما أظتم الله فى الخير .

ولهذا يجب أن يكون على بال كل مسلم دائما قول الله تعالى فى سورة فاطر (يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) والغرور هو الشيطان حيث يبنى الناس بالمغفرة مع الاصرار على المعصية ويزين لهم المفاصد فى العقائد والأفعال ولهذا يأمرنا سبحانه أن نكون على حذر منه ، فى جميع الأحوال لأنه اخطر أعدائنا حيث يرانا ولا نراه كما نبهنا الى ذلك سبحانه وتعالى بقوله الكريم فى سورة الأعراف (يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون . وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا آباءنا والله أمرنا بها

(قل ان الله لا يامر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون . قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كم بدأكم تعودون . فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) .

وفى هذه المناسبة أذكر لكم ما قرأته فى مناقب سيدى الامام الكبير عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه من انه كان يذكر الله تعالى ليلة فى خلوة فأراد الشيطان أن يفتنه فظهر له فى شكل نور ملاً الغرفة مدعياً أنه الاله وقال مخاطباً للامام : يا عبد القادر لقد وصلت بعبادتك الى منتهى رضاي ولك أن تفعل من الفواحش ما تشاء ، فقال الامام ردا عليه ، إخساً يا ملعون ، فضحك اللعين وقال : بما أعلمك أنى أبلّيس ؟ قال الامام : (ان الله لا بأمر بالفحشاء ، فقال اللعين : يا عبد القادر ، لقد نجوت منى بعلمك ، وما أكثر من أغويتهم بمثل تلك الفتنة من الجهلاء . أقول : ومن أروع ما يستفيد به المؤمن من همزات الشيطان ما كان يقوله مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان يقوم الى الصلاة : . أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزة ونفخه ونفثه " .

معجزة القرآن الخالدة :

وفى هذا المقام أقول لشبابنا الطاهر : ان الله تعالى أبقى لنا معجزة القرآن الخالدة على طول الزمان وهى معجزة يتحدى الله بها على الدوام الانس والجن مجتمعين على أن يأتوا ولو بسورة واحدة منه ، وقد عجزت العرب وهم فى أوج البلاغة التى اشتهروا بها عند نزول القرآن عن التحدى ولا زالوا عاجزين ، وسيظلون فى هذا العجز أبداً الأبدى ، وكفى بذلك العجز الدائم دليلاً على صدق القرآن الناطق بقوله تعالى فى سورة آل عمران (ان الدين عند الله الاسلام) .

وليكن نصب أعيننا على الدوام قول الله تعالى فى سورة آل عمران (أغير

دين الله يرغبون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون .
قل آمننا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب
والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن
له مسلمون . ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من
الخاسرين) .

ويجب أن نتذكر دائما قوله تعالى فى السورة ذاتها (ان الذين كفروا وماتوا
وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به اولئك لهم عذاب
أليم وما لهم من ناصرين) وهذا ما يدلنا على قيمة الايمان وغنى أهله ، وعلى فقر
أهل الكفر الحقيقى وان كثرت أموالهم ، وهو ما يعلمنا الله به أن الغنى الحق
هو غنى القلب ، وأن الفقر هو فقر القلب .

ولنتعظ بما يعظنا به سبحانه وتعالى بقوله الكريم فى سورة آل عمران (زين
للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة
والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن
المآب . قل أُنبيئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها
الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد .
الذين يقولون ربنا اننا آمننا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين
والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار . شهد الله أنه لا اله
الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم) .

وقد جاء فى حاشية الامام الجمل رضى الله عنه : ان الآية الكريمة (شهد
الله أنه لا اله الا هو) ورد فى فضلها أنه عليه الصلاة والسلام قال :
" يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل : ان لعبدى هذا عهدى عهدا
وأنا أحق من وفى بالعهد ، أدخلوا عبدى الجنة " وجاء فى الحاشية كذلك :
وفى المدارك : من قرأها عند منامه وقال بعدها أشهد بما شهد الله واستودع

الله هذه الشهادة وهى لى عنده وديعة يقول الله يوم القيامة : ان لعبدى . . . الخ) .

وجاء فى تفسير الامام أبى مسعود رضى الله عنه : قدم النبى صلى الله عليه وسلم حبران . أى عالمان . من أحبار الشام ، فقالا له : أنت محمد وأحمد ، قالوا فانا نسألك عن شى فان أخبرتنا به آما بك وصدقناك ، فقال عليه الصلاة والسلام : سلا ، فقال ، أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله فأنزل هذه الآية ، فأسلم الرجلان .

أقول : وما أغنى المؤمنين بالقرآن الكريم فهو خير من الدنيا وما فيها وما أصدق قوله تعالى فى سورة يونس (يا ايها الناس قد جاتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله ورحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) .

بين الامام أبى حنيفة وبعض الكافرين :

وقد قرأت قصة طريفة وقعت بين سيدى الامام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه وبعض الكافرين ، فقد جلسوا اليه واراد أن يشدهم الى الايمان عن تفكر سليم فقال لهم : يقال ان سفينة كانت محملة بالبضائع وراسية على شاطئ البحر ، فأقلعت بنفسها من غير أن يكون فيها ربان يقودها ، وهبت الرياح عليها وهى سائرة فى البحر وتعرضت للأمواج عاتية وعلى الرغم من ذلك فقد نجحت السفينة فى رحلتها ورسبت بنفسها على الميناء المقصود لتنزل حمولتها . فقالوا له : هل تصورت أننا مجانين لا عقل لنا ؟ قال : كيف ذلك ؟ فقالوا : هل يعقل أن تسير سفينة وحدها دون ربان يقودها وتصل الى الميناء المقصود على الرغم مما صادفها من اضطراب البحر فقال لهم : اذا كان هذا لا يصح فى فهمكم ، فكيف صح فى فهمكم أن هذا الكون المترامى الأطراف ليس له اله يدبر

أمره .

ومن طريف ما وقع كذلك بينه وبين سائل سألته : ماذا كان قبل الله ؟ فقال
رضى الله عنه لهذا السائل : أحسن العدد . أى الحساب . قال نعم ،
قال : ما هو أقل عدد فى الحساب ؟ قال الواحد ، قال : وماذا قبل الواحد ؟
قال لا شىء ، فقال له : اذا كان واحد الحساب لا شىء قبله فكيف تتصور
أن يكون شىء قبل الواحد الأحد سبحانه .

سادتنا الأنصار والبيع والربح :

ورد فى حاشية الامام الجمل رضى الله عنه أنه حين بايع سادتنا الأنصار
رضى الله عنهم . مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منى ليلة العقبة
وكانوا سبعين رجلا قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه : اشترط لربك ولنفسك
ما شئت ، قال : اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، واشترط لنفسي
أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم ، قال : اذا ما فعلنا ذلك مالنا ؟
قال : الجنة ، قالوا ربح البيع لا نقييل ولا نستقييل ، فنزل قوله تعالى فى
سورة التوبة (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة
يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن
ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز
العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون
الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنون) .
وجاء فى الحاشية كذلك : قال أهل المعانى : لا يجوز أن يشتري الله شيئا
فى الحقيقة لأن المشتري انما يشتري ما لا يملكه والأشياء كلها ملك الله عز وجل ،
ولهذا قال الحسن : أنفسنا هو خلقها ، وأمواننا هو رزقنا اياها ، ولكن جرى
هذا مجرى التلطف فى الدعا الى الطاعة والجهاد ، وذلك لأن المؤمن اذا قاتل

فى سبيل الله حتى يقتل أو أنفق ماله فى سبيل الله عوضه الله الجنة فى الآخرة
جزاء لما فعل فى الدنيا فجعل ذلك استبدالاً وشراء ، فهذا معنى اشترى من
المؤمنين أنفسهم وأموالهم .

الأمانة وأداء الحقوق :

ويربينا سبحانه وتعالى على الأمانة وأداء الحقوق فى معاملتنا كما يعلمنا
درساً قيماً فى إدارة التجارة ، فىقول تعالى فى سورة البقرة (يا أيها الذين
آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فأكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل
ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله
ربه ولا يبخس منه شيئاً فان كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع
أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا
رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل أحدهما فتذكر
أحدهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً
أو كبيراً الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا الا
أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها واشهدوا اذا
تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم
الله والله بكل شىء عليم) .

وقد جاء فى حاشية الامام الجمل رضى الله عنه فى التعقيب على الآية
الكريمة ، المتقدمة ما يأتى : .

" هذا آخر آية الدين وقد حث الله سبحانه وتعالى فيها على الاحتياط
فى أمر الأموال لكونها سبباً لمصالح المعاش والمعاد ، وقال القفال رحمه الله :
" ويدل على ذلك أن ألفاظ القرآن جارية فى الأكثر على الاختصار ، وفى
هذه الآية بسط شديد ، ألا ترى أنه قال (اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى

فأكتبوه) ثم قال (وليكتب بينكم كاتب بالعدل) ثم قال ثالثا (ولا يَأب كاتب أن يكتب كما علمه الله) فكان هذا كالتكرار بقوله (وليكتب بينكم كاتب بالعدل) لأن العدل هو ما علمه الله ، ثم قال أيضا (فليكتب) وهذا اعادة للأمر الأول ، ثم قال خامسا (وليملل الذى عليه الحق) لأن الكاتب بالعدل انما يكتب ما يملى عليه ثم قال سادسا (وليتق الله) وهذا تأكيد ثم قال سابعا (ولا يبخس منه شيئا) وهذا كالمستفاد من قوله (وليتق الله ربه) ثم قال ثامنا (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله) ، وهو أيضا تأكيد لما مضى ثم قال تاسعا (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا) فذكر هذه الفوائد التالية لتلك التأكيدات السابقة ، وكل ذلك يدل على المبالغة فى التوصية بحفظ المال الحلال وصونه عن الهلاك ليتمكن الانسان بواسطته من الانفاق فى سبيل الله والأعراض عن مساخطة من الربا وغيره والمواظبة على تقوى الله .

ويقول سبحانه فى الآية اللاحقة (وان كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فهران مقبوضة فان آمن بعضكم بعضا فليؤد الذبأوتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم) ويقول الامام أبو السعود فى تفسير رضى الله عنه : قوله تعالى (وليتق الله ربه) فيه مبالغات من حيث الاتيان بصيغة الأمر الظاهر فى الوجوب والجمع بين ذكر الله والرب وذكره الأمر بأداء الدين ، وفيه من التحذير والتخفيف ما لا يخفى .

ويعقب سيدى الامام القشيري فى لطائف اشارته على آية الدين فيقول رضى الله عنه :

" أمر سبحانه الخلق بالقيام بالصدق ، وعلمهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم ، والأخذ بالاحتياط والاستشهاد لئلا يجرى بعضهم على بعض حيفا ، وذلك من مقتضى رحمته سبحانه كيلا يتخاصموا فأمر بتحسين الحقوق بالكتابة

والاشهاد ، وفيما شرع من الدين رفق بأرباب الحاجات .

التحذير من التطفيف :

يقول سبحانه وتعالى محذرا من التطفيف فى سورة المطففين (ويل للمطففين الذين اذا اکتالوا على الناس يستوفون ، واذا کالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا یظن أولئك أنهم مبعوثون لیوم عظیم . یوم یقوم الناس لرب العالمین) وفى ذلك أنکار على بفس الكیل أو المیزان أهدارا لحقوق الناس ، ویخوف الله المطففين الذين یأكلون أموال الناس بالباطل بالعقاب یوم القيامة الذى یجرى فيه حکم الله فینتقم من الظالم .

صيانة أموال الیتامی :

يقول الله تعالى فى سورة النساء (وآتوا الیتامی أموالهم ولا تتبدلوا الخبیث بالطیب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالکم أنه كان حوبا كبيرا) والحوب الكبير أى الذنب العظیم ، كما یقول تعالى فى السورة ذاتها (وابتلوا الیتامی حتى اذا بلغوا النکاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا الیهم أموالهم ولا تأكلوها اسرافا وبدارا أن یكبروا ومن كان غنيا فلیستغف ومن كان فقیرا فلیأکل بالمعروف فاذا دفعتم الیهم أموالهم فاشهدوا علیهم وكفى بالله حسیبا) ویحذر سبحانه من أكل مال الیتیم بالباطل فیقول فى سورة النساء كذلك (ان الذين یأكلون أموال الیتامی ظلما إنما یأكلون فى بطونهم نارا ویصلون سعیرا) وهى نصوص زاجرة وناهية عن أكل أموال الیتامی ظلما .

العدل بین الأولاد :

ویوصى الله تعالى الآباء بحقوق الأبناء فى المیراث لأن هوى النفوس البشرية قد یدفعهم الى تمیز البعض فیقول فى سورة النساء (یوصیکم

الله أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فان كان له أخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليما حكيما) ومعنى قوله تعالى (يوصيكم الله فى أولادكم) أى يأمركم ، وبدأ بالأولاد لأنهم أقرب الى المورث من غيرهم وأكثر بقاء بعده . وفى قوله فى آخر الآية (فريضة من الله) تويخ لمن خالف حكم الله فى توزيع الميراث على النحو الذى شرعه ، وقوله تعالى (آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا) أى لا تعلمون من هو أنفع لكم من أموالكم وفروعكم فى عاجلكم فالتزموا حدود الله ولا تلجأوا بهواكم لتفضيل البعض على البعض . وفى هذه المناسبة أذكر لكم احدى طرائف شيخنا الأكبر وامام طريقتنا الخليلية وهو سيدى الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه الأنوار الملحق بمسجده المعروف بالزقازيق فقد جاء يوما شخص وقال له : يا سيدى الشيخ ، انى أريد أن أميز ابنى فلانا عن أخوته ، فما رأيك ؟ فسكت سيدى الشيخ ولم يجبه بشيء ، فقال بعض الحاضرين ، يا سيدى ان فلانا ينتظر جوابك عما سألك عنه . فقال سيدى الشيخ فى طرفه ، ان أبا خليل لا رأى له مع من لا يعجبه تقسيم الله فى الميراث ، فبادر صاحب السؤال قائلا : فهمت يا سيدى الشيخ وعدلت عن تمييز أبنى .

حقوق النساء :

يقول تعالى فى سورة النساء (وآتوا النساء صداقتهن نحلة فان طبن لكم عن شى منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا) والصدقات معناها المهور ونحلة أى عطية فلا يأخذ الرجل من مهر زوجته الا ما طابت نفسها به ، وقال تعالى (منه) بعثا لهن على تقليل الموهوب حفاظا على حقوقهن المشروعة . ويقول تعالى فى

السورة ذاتها فى الحفاظ على حقوق الزوجات (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) وقوله تعالى بصيغة الاستفهام (تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً) انما هو استفهام انكار وتوبيخ أما قوله تعالى (وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) فيشير الى ما أخذه الله على الرجال من ميثاق بشأن أزواجهن فى قوله سبحانه (فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان) والى ما قاله صلى الله عليه وسلم " أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله " .

وجوب العناية بأمر الدين :

يعلمنا سبحانه وتعالى ألا نضحى بأمر ديننا من أجل أمور الدنيا فيقول جل جلاله فى سورة الجمعة (يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) والآية الأخيرة نزلت حين قدمت بضائع من الشام وكان أهل المدينة يستقبلون وصولها بالطبل فخرج المصلون وتركوا مولانا رسول الله قائما على المنبر ، وكان يصلى الجمعة أولا ثم يخطب الخطبة وظنوا ألا حرج عليهم فى الخروج لشراء ما يحتاجون اليه ، وقالوا لم يبق معه الا اثنا عشر رجلا ، ثم جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة بعد الخطبة واستمر على ذلك .

عمار المساجد :

يقول الله تعالى فى سورة التوبة (انما يعمر مساجد الله من آمن بالله

واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وتكون عمارة المساجد بالطاعات من صلوات وتسبيح وذكر وتلاوة القرآن وتفقه فى شرع الله واعتكاف وتجنب المآثم واللغو ، وعن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى : ان بيوتى فى أرضى المساجد وان زوارى فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى فحق على المزور أن يكرم زائره .

ويثنى الله تعالى على المؤمنين الذين لا تلهيهم تجارة عن ذكر الله أو عن أداء الفرائض فيقول سبحانه وتعالى فى سورة النور (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) ومن هذا الوصف الرائع نعلم أنهم يقيمون الصلاة فى أوقاتها ويؤدون الزكاة المستحقة على أموالهم ، ومع ما هم عليه من ذكر الله وطاعته يخافون مقامهم بين يدى الله يوم القيامة وهو اليوم الذى تتقلب فيه القلوب وتضطرب من أهواله وكيف لا يحسبون ليوم القيامة حسابه وقد قال تعالى شأنه فى سورة القيامة (فاذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر ، يقول الانسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . الى ربك يومئذ المستقر . ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) كما أنه سبحانه وتعالى حذرنا من اهمال أمر الآخرة فقال سبحانه وتعالى فى السورة ذاتها (كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة . وجوه يومئذ باسره . تظن أن يفعل فاقرة) .

وجا فى تفسير الامام البيضاوى . رضى الله عنه . لقوله تعالى . (ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) بما قدم من عمل عمله وما أخر منه لم يعمله ، أو بما قدم من عمل عمله وما أخر من سنة حسنة أو سيئة عمل بها بعده أو بما قدم

من مال تصدق به أو بما أخر خلفه أو بأول عمله وأخره . وفى تفسير قوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة) يقول الامام البيضاوى أى بهيئة متهلله تراه مستغرقة فى مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه ، أما فى تفسير قوله تعالى (ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة) فيقول الامام رضى الله عنه : أى شديدة العبوس تتوقع داهية .

أقول وخوف هؤلاء المتقين يدل على علمهم الراسخ لأنه تعالى يقول فى سورة فاطر (إنما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور) ويستند الى هذه الآية الكريمة الشاعر الحكيم القائل :

على قدر علم المرء يعظم خوفه . . فلا عالم الا من الله خائف

ويقول الامام البيضاوى رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) : شرط الخشية معرفة المخشى والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم كان أخفى لله ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : " إنى أخشاكم لله وأتقاكم له " .

ومن ذلك نرى أن العلم بالله هو الذى يورث المؤمن خشية الله ، أما العلماء الذين بهروا عقولنا بمخترعاتهم فلم يعنوا بأمر الآخرة ، ولغفلتهم عن الله وقفوا بعلمهم عند أمور الدنيا الفانية ، ولذلك قال تعالى فى سورة الروم (ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون) ، فنسب الله لهم بالدنيا واعتبر غفلتهم عن الآخرة جهلا وإن كانوا أعلم بأمور الدنيا من علماء الآخرة وأكثر منهم عددا . وما أعمق ما علمنا به الله تعالى والفرق بين الدنيا الفانية والآخرة الباقية بقوله الكريم فى سورة العنكبوت (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) والحيوان أى الحياة الأبدية الحقبة التى لا يلحقها

فناء كحياة الدنيا ، وصدق السادة الصوفية حين قالوا : الدنيا لأهل الدنيا
غرور فغرور ، والآخرة لأهل الآخرة سرور فى سرور ، ومحبة الله تعالى لأهل محبته نور على
نور .

إيثار الله على ما سواه :

يعلمنا كتاب الله الكريم أن نؤثر الله ورسوله على الآباء والأبناء ، والأزواج
والأخوة والآخوات والأهل والأموال والتجارة فيقول سبحانه وتعالى فى سورة
التوبة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر
على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم
وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن
ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله
بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) وقد جاء فى تفسير الامام البيضاوى رضى
الله عنه : أنه حين أمر الله المهاجرين بالهجرة قالوا : ان هاجرنا قطعنا
آباءنا وعشائرننا وذهبنا تجارتنا وبقينا ضائعين ، وفى الآية الأخيرة
تشديد عظيم وتهديد بعقوبة عاجلة أو آجلة وقيل بفتح مكة .

ويعقب سيدى الامام القشيري فى لطائف اشاراته على الآية الأخيرة فيقول
رضى الله عنه : ليس هذا تخييرا لهم ، ولا إذنا فى إيثار الحظوظ على الحقوق ،
ولكنه غاية التحذير والزجر عن إيثار شىء من الحظوظ على الدين .

حزب الله المفلحون :

وقد شرف الله تعالى المؤمنين الذين يؤثرونه سبحانه وتعالى على ما سواه
فسماهم حزب الله وبشرهم بالفلاح وهو الفوز المرغوب والنجاة من المكروه ، فقال
جل جلاله فى سورة المجادلة (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون
من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم أولئك

كتب فى قلوبهم الايمان وايدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله الا أن حزب الله هم المفلحون) .

رقابة الله الدائمة :

ولا يغيب عنا نحن المؤمنین أن الله تعالى مطلع على عباده ولا يخفى عليه شىء من امرهم فوجب أن يراقبه كل مؤمن ويرضيه سبحانه وتعالى فى قوله وعمله وسكوته ، ولذلك يقول سادتنا الصوفية ، إذا تكلمت فاذكر سمع الله اليك ، وإذا عملت فاذكر نظر الله اليك وإذا سكت فاذكر علم الله فيك ، وهى نصيحة غالية ، ويؤيدهم فيها قوله تعالى فى سورة يونس (وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعلمون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) . ورقابة الله تعالى الدائمة تحمل المؤمن على أن يتقى ربه حق تقاته حتى لا يراه سبحانه وتعالى حيث نهاه وكيف لا يتقى المؤمن ربه حق تقاته وقد أمره بذلك فقال تعالى فى سورة آل عمران (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) وقد قال سيدى عبد الله بن مسعود فى تفسيرها رضى الله عنه : هى أن يطاع الله فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى .

أهل الايمان وسعادتهم فى الآخرة :

وما أعظم ربح المؤمن المتقين فى الآخرة وما أفدح خسارة الكافرين فقد كشف الله لنا من غيبه مآل الفريقين عندئذ فقال تعالى فى سورة المؤمنون (فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها

تكدبون . قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ، ربنا أخرجنا منها فان عدنا فإنا ظالمون . قال اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آما فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون . إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) .

وأكتفى بهذا القدر مراعاة للوقت واشكر لكم حسن استماعكم ، وأسأل الله تعالى أن ينفعنا وينفع المسلمين جميعا فى المشارق والمغرب بالقرآن الكريم الذى يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ، ،

حسن كامل المطاوى

مساء الثلاثاء ٢٨ من رمضان ١٣٩٩ هـ

الموافق ٢١ من أغسطس ١٩٧٩ م